بالحفظ ، وعليكم ، حتى لا يكونوا مخدوعين للمحرفين . ومن مقتضى القواعد أن الشيء يزول بزوال سببه . ولم يرد أن أحداً من الصحابة نهى اليهود عن السلام ، لأنهم لم يكونوا ليحظروا على الناس آداب الاسلام ، ولكن خلف من بعدهم خلف أرادوا أن يمنعوا غير المسلم من كل شيء يعمله المسلم حتى من النظر في القرآن وقراءة الكتب المشتملة على آياته وظنوا أن هذا تعظيم للدين ، وصون له عن المخالفين ، وكلما زادوا بعداً عن حقيقة الاسلام زادوا إغالاً في هذا الضرب من التعظيم . وإنهم ليشاهدون النصارى في هذا العصر يجتهدون بنشر دينهم ويوزعون كثيراً من كتبه على الناس مجاناً ويعلمون أولاد المخالفين لهم في مدارسهم ليقربوهم من دينهم ، ويجتهدون في تحويل الناس الى عاداتهم وشعائرهم ليقربوا من دينهم حتى أن الأوربيين فرحوا فرحاً شديداً عندما وافقهم خديو مصر الاسبق على استبدال التاريخ المسيحي بالتاريخ الهجري وعدّوا هذا من آيات الفتح ، ونرى القوم الآن يسعون في جعل يوم الأحد عيداً أسبوعياً للمسلمين يشاركون فيه النصارى بالبطالة . ومع هذا كله نرى المسلمين لا يزالون يحبون منع غيرهم من الأخذ بآدابهم وعاداتهم ويزعمون أن هذا تعظيم للدين ، وكأن هذا التعظيم لا نهاية له الا حجب هذا الدين عن العالمين ، ان هذا هو البلاء المبين ، وسيرجعون عنه بعد حين ،

باب التربية وطرق التعليم

الازهر والازهريون . وفاضل هندي

(الرسالة الثانية مما وعد به الشيخ عبد العزيز المريني الازهري والأولى نشرت في الجزء ١٠)

(من القاهرة الى حيدر اباد)

اليك أيها الأخ سلام صديق طبع قلبه على الاخلاص لك ، وارتبط بأسباب محبتك ، وشكوى شوق قد برح بي برحا لا أستطيع له شرحا . وبعد فقد ذكرت لك في رسالتي السابقة طرفاً من نظام مدرسة الازهر وطرق التعليم بها على وجه الجملة والآن أريد أن آتي لك بعبارة أوسع وتفصيل أشفي على كل ما رأيته من نظام طلبها وسلوكهم مناهج التحصيل مقتفياً أثر الطالب في كل دور من أدوار طلبه من ابان

دخوله فيها حتى يترشح لنيل شهادتها مبيناً لك قوته وما حصل عليه في كل دور منها

زرت أيها الاخ تلك المدرسة من تاريخ الرسالة الاولى حتى اليوم زورات متعددة في أوقات مختلفة وقفت فيها على تلك الدروس وقفة العاشق الدقيق على الربع المحيل وهو يبكي لأناس عاهدوا الرحيل على أن لا يملوا الذميل

فكانت نتيجة ذلك البحث الدقيق والتقرير المتواصل ان ظهر لي ما عليه تلك المدرسة الواسعة الكثيرة العدد ووقوفي على مواضع خللها وسوء نظامها على ما أنا عليه من الغربة وبعد الدار ورأيت أن أجعل كل موضوع رأساً مستقلا بنفسه أذكر فيه كل ما استبان لي من النقد كما سيمر بك ان شاء الله

انتظام الطلبة : وأول أمر رغبت في كشف سره وبيان سببه من أمور هذه المدرسة هو سبب كثرة طلابها حتى بلغوا نيفاً وثمانية آلاف أو يزيدون وأغلبهم من المصريين كما قدمت لك في رسالتي السابقة فكان غاية ما وقفت عليه من ذلك ما سمعته هناك من أخ ثقة خبير قال : لا يكاد يمر الانسان ببلدة من البلدان المصرية أو قرية من قراها حتى يرى مئات من شبان المصريين حلفاء الترب وضيق ذات اليد وهم يطاردون الجوع بالفأس والمحراث وتمضية يومهم الطويل في الحقول والمزارع والتعب والنصب تحت شمس تذيب بوهجها رأس الضب . ومن بينهم أفراد لا يكاد يخلو منهم بلد من البلدان أو قرية من القرى معطلون عن كل عمل يطلقون عليهم تارة لقب الفقهاء أو الوعاظ وطوراً اسم المأذونين يرى الواحد منهم في جبة وقباء وعمامة عجراء يأكل جميع ساعات نهاره إما مترنماً في بيته خالياً من كل عمل أو قاعداً في احدى الزوايا ينثر من فيه على بسطاء أهل الفلاحة ما يسمونه وعظاً وارشاداً وما هو الا أقاصيص أو لغو في حكمها يدعوا الناس به الى حب التواكل والبطالة حتى اذا أتى على آخر الدرس لبث مكانه منتظراً ما تدر به أيدي أولئك العملة المساكين الذين لم يحصلوا على الدرهم الا طراداً ، ولم ينالوا اللقمة الا جهاداً . ومن ذلك يتألف لهؤلاء المعطلين عيشة لا تعب فيها ولا نصب فاذا رزق الله أحد الفلاحين الفقراء ولداً وقع بين نارين إما أن يدعه يشتغل بما يشتغل هو به فيعيش عيشة البؤس والخصاصة وإما ان يدفع به الى الأزهر ويثابر على أن يقسم له ما ينالله من الأجر على أعماله حتى يمضي عليه عدد من السنين فيخرج منه وقد ترشح لأن يأكل من أوساخ الناس ويعيش عالة على العباد متوسداً الراحة من عناء كل عمل . فاذا ترجح عنده الامر الثاني دفع به الى الازهر وأخذ يجري عليه

من النفقة مايقطعه من قوت يومه الضروري . لذلك لاتكاد تجد في المائة واحداً من الطلبة من البيوتات الشريفة التي يعمل أهلوها لمستقبل شريف كالقضاء والافتاء . فأنت اذا سرت في ساحة تلك المدرسة فانما تشق أجساماً تنبو عن رؤيتها النفس وهم مختلفون متباينون ليس لهم نظام ولا ترتيب . ويغلب ان يكون سن الطالب عند ادراجه في سلك الازهريين . مابين الخامسة عشرة الى الثلاثين . وقد كان امتحان الدخول في هذه المدرسة بسيطاً قاصراً على معرفة القراءة والكتابة اما اليوم فهم يشترطون مع ذلك حفظ جميع القرآن للكفيف ونصفه لغيره .

ولأجل ان أتمكن من أن أبين لك ادوار الطالب هناك وأوقفك على قوته في كل دور منها اقسمها الى ثلاثة أدوار وكل دور ثلاث سنوات فيكون المجموع اثنتي عشرة سنة . وهي أقل مدة أمكن بعض الطلبة نيل الشهادة فيها

الدور الاول : يتقدم الطالب للانتظام في الازهر وهو في السن الذي قدمت لك فان كان من الفلاحين (وهو الاغلب) رأى نفسه قد انتقل طفرة من بين رعاء الشاء الى حلقات المدرسين ومجالس العلماء . وان كان من البيوتات الكبيرة والأسر الخاصة (وقليل ماهم) انتقل المسكين وثبة في يوم واحد من نعيم العيش وحسن الحال الى عيش التقشف والخشونة وبُدل في ساعة واحدة بروية أهله وهم على ما عهد من النظافة وجمال الهندام رؤية أولئك الذين ذكرت لك . وسواء كان الطالب من العامة أو من الخاصة فانه يتساوى مع غيره في الطلب وطرق التحصيل

يدخل الطالب تلك المدرسة وهو لايدري كيف يحضر ولا ماذا يقرأ ولا على من يتلقى دروسه ولا على أي وجه يسير فيها ولا ما هي الكتب تشرى لذلك الغرض من حيث لا ناظر له هناك ولا رقيب عليه يأمره بشراء كتاب معلوم والاختلاف الى درس مخصوص بل يمكث هناك المسكين أياماً يجول في أركان الازهر وهو على ما ذكرت من البساطة والسذاجة ويأخذ كل يوم في التطواف بحلقات الدروس يتساءل من الطلبة المتقدمين عن كتاب يشتريه ، ودرس ينتظم في سلك طالبيه . حتى اذا تيسر له ذلك بعد الذي تقدم من الحيرة والتعب وضياع الوقت وحضر احد الدروس أخذ يقلب طرفه فيما بين يديه ، ويجهد أذنيه لسماع ما يلقي عليه . فلا ينظر الا نقوشاً لامقدرة له الا على النطق بها دون أن يعقل لها أقل معنى . ولا تقع في أذنه الا ألفاظ هي أشبه بالرطانة منها بما يتكلم به الناس فيظل سنته الاولى وهو يروح الى الدروس كما يغدو اليها خالياً من الفائدة مجرداً من

فهم أي شيء مما يتلوه عليه معلمه الا أن يحفظ بعض كلمات مثل : ضرب زيد ، وقتل بكر عمراً : وتابط شراً : وقال رحمه الله تعالى ، الخ .. هذا مبلغ ما يصل اليه الطالب من اختلافه الى دروس النحو في سنته الاولى — وأريد قبل أن أسلك بالكلام الى دروس الفقه أن اقول كنت أود أن أطلعك على جميع ما يشتغل به الطالب من الكتب على المذاهب الاربعة الا اني لا أرى في استقصائها كبير فائدة بل الاحسن ان أفصل كتب مذهب واحد واخترت أن يكون الحنفي لأنه الاشهر ، وان لم يكن الاكثر ، ثم أنت قيس ما بقي من الكتب في المذاهب الاخرى عليه لما بينها من المشاكلة التامة في صناعة التأليف وأسلوب التحرير .

وما حصل عليه في سنته الأولى من النحو يحصل على ما يشاكله في الفقه . وأول كتاب في النحو يسمونه الكفراوي وما يقابله من الفقه يسمى مراقي الفلاح . اما الكفراوي فقد وضعه صاحبه شرحاً لمتن صغير اسمه الاجرومية مشوش العبارة مختصراً جداً

واما مراقي الفلاح فهو كتاب يقتصر من الفقه على العبادات فقط وهو على ذلك مجلد ضخم سلك به مؤلفه مسلك الإسهاب والإطناب . على انه على ما به من التطويل يعد أحسن كتاب في الفقه هناك . وتصاري القول ان الطالب يقطع شهور سنته الأولى كلها ولا يعلق بذهنه ما يستحق ان أذكره لك . وانما هي كلمات يسمعها فتمر عليه مر الخيال الناري — ثم يدخل في سنته الثانية وهو على هذه الحال فيأكل أيامها وهو بالحيرة والذهول لقصور ذهنه عن ادراك أيّ شيء مما يسمع أو يقرأ . وكثيراً ما يلحق الطالب أو أهله القنوط من النجاح فيخرج من هناك ليحترف . ولا كتب يحضرها في سنته الثانية على الطالب الا ما أمضى فيها سنته الأولى وسيره فيها لا يتميز عن السنة الفائتة الا بكونه وصل الى أن يعرب جملا بسيطة معلومة حفظ اعرابها حفظاً على غير فهم ولا تفكر . ويعرف بعض أسماء الائمة وشيء من الاصطلاحات الفقهية في الفقه . ثم يتدرج من هاتين السنتين الى السنة الثالثة وفي أولها يكون قد أثر في ذهنه كثرة ما يرد عليه من تعقيد الجمل وتشويش العبارات تأثيراً يحمله على الجلد والتصبر على تلك الاساليب وربما فهم اذ ذاك بعض الجمل بعد ان ينصب نفسه وينصب فكره كل التعب وينتقل حينئذ من الكفراوي الى كتاب يسمونه (الشيخ خالد) وهو كتاب أصغر في الحجم من الكفراوي وأسهل منه عبارة ولكن يظهر أن سهولته لم ترق للاشياخ هناك فانبرى له بعضهم وعلق عليه حواشي من الفروض

على الطالب الأزهري أن يكد ذهنه في فهمها ولم أر على الله كتاباً يكد الفكر ويتعب القارئ في فهم عباراته المشوشة المضطربة مثل ذلك الكتاب . ويقابل هذا الكتاب من الفقه في هذه السنة كتاب (الطائي) أخو تلك الحاشية في فساد العبارة وسماجتها وقبح تحريرها ركب به مؤلفه أسلوباً لم أر مايشاكله في كل ماوقع لي من مؤلفات العرب فهو يحذف مايلزم اثباته ويكتب ما من حقه الحذف ويؤخر ماله التقديم ويقدم ما من شأنه التأخير

وأعجل اليك قبل أن أرتقي الى ذكر الكتب الفقهية الكبيرة ببيان ان هذا الطالب الضعيف يفاجأ في هذه المدة بتلك الابواب الطويلة المحشوة بالخلاف وتضارب آراء الأئمة فيما لايعود بأقل فائدة على التلميذ ولا ينتظر أن تكون منه فائدة لغيره مثل أبواب العتق والرق الخ وهناك أبواب أخرى فتحها نافع ولكن توسعتها ضارة لأن مؤلفي تلك الكتب خرجوا بها عن دائرة التشريع الى بيداء واسعة من الخيال المحض فلا تكاد تنظر في باب من أبواب الطلاق مثلا حتى ترى الكثير من الصور الغريبة النائية عما يقصد الشرع في كتاب الله الحكيم وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وما جرى عليه أصحابه وأئمة السلف في الصدر الاول من الاسلام .

على ماقدمت ينتهي التلميذ من دوره الاول ولو أتي بغلام سليم الفطرة الى معلم حكيم في التعليم وأخذ يملي عليه كل يوم قليلا من النحو والفقه ويفهمه اياه حق التفهيم لبلغ في ثلاثة شهور من التحصيل الى أضعاف مايبلغه طالب الازهر في ثلاث سنوات .

الدور الثاني : اذا خرج الطالب من هذا الدور وهو على ما مر بك وأخذ يدخل في الدور الثاني كان أول شيء يبدأ به أن يضم الى درسي النحو والفقه درساً أو درسين في التوحيد أو المنطق أو البلاغة أو العروض واختيار الطالب أي فن من هذه الفنون أمر موكول الى المصادفات التي تسوقه الى أي فن منها وكثير من الطلبة لايعد عينيه الى تلك العلوم الا بعد مضي ست سنوات ولا أريد ان أذكر لك الآن ماهي هذه الكتب وما يستفيده الطالب منها بل ادع ذلك لفرصة أخرى وآتي لك قبل ذلك على وصف مايشتغل به من الكتب في العلمين الأسليين عندهم الفقه والنحو

وأول كتاب يفتحون به السنة الرابعة في الفقه كتاب يقال له (متلامسكين) يقضي فيه الطالب على الطالب سنتين ومتلامسكين هذا كسائر ماتقدم من الكتب محشو بالحواشي يستكثر عن غير جدوى والتعمق في فروع تنقضي الاعمار ولا تقع ولا

يحتاج اليها غير أنه يمتاز عن تلك الكتب بالخطأ فيما يورده من أقوال أئمة المذاهب الأخرى في معترض الرد عليهم وتزييف أقوالهم . وهو مالا يكاد يخلو منه كتاب أو باب من الابواب . بعد ان يتم المسكين (مثلا مسكين) يأخذ في تلقي كتاب بعده يقال له (العيني) وهو كتاب بلغ به صاحبه حد النهاية من الخطأ والغلط والتعمل في تزييف مذهب الامام الشافعي واختراع الصور الفقهية ولا يكاد يأتي الطالب على آخره وفي صدره شيء من جوهر العلم اللهم الا تلك الصور الذهنية والمسائل الخيالية والمماحكات اللفظية وحفظ أسماء أغلب من اشتغلوا بهذا الفن لكثرة مايرد من اسمائهم في صدد الخلاف ، وان تعجب فعجب بل ألف عجب اتفاق أكثر جماعة الازهر وجل مشايخه على استحسان هذا الكتاب وامتداح كل من حذا حذوه في صناعة التأليف . ر ندي ان ذلك كاف لبيان ماهم عليه من الذكاء والنبل وماوصلوا اليه من العلم والفضل . ويشتغل الطالب فيما يقابل ذلك من النحو في الدور الثاني بثلاثة كتب — الازهرية والقطر والشذور . أما الازهرية فكتاب سهل العبارة اقتصر من النحو على المبادئ الا أنه مبتلى كاخوانه بحاشية خط فيها مؤلفها في أغلب المواضع عما هو بصدده . وأما كتابا القطر والشذور فكلاهما درة متلألئة بين أطمار بالية ألفهما ابن هشام رحمه الله غاية في حسن العبارة وانسجام الاسلوب لم يترك قاعدة يحتاج اليها الطالب الا أتى عليها في هذين الكتابين . ولو اقتصر الازهريون على قراءتهما مجردا من الحواشي والتقارير لحصل الطالب منهما على الغرض المقصود من النحو . ولكن الأمر على عكس ذلك فقد وضع بعض الأشياخ على كل كتاب حاشية لم يقع طرفي حتى اليوم على عبارة أبرد ولا اسمج من عبارتها وقد سلك بها طريق التعسف والتعقيد حتى صارت سجفا يحول بين الطالب وما توخى بيانه المؤلف رحمه الله . ومن غرائب الاتفاق ان وقعت في يدي اليوم حاشية القطر فكانت أول جملة وقع طرفي عليها من غير قصد ما كتبه صاحبها تعليقا على بيت اورده المؤلف وهو :

(الا يا أسلمي ياداريّ على البلى ولا زال منهلا بجرعائك القطر)

(قال المحشي) الاحرف استفتاح واسلمي فعل امر ومي اسم امرأة والبلى مقصور مكسور المراد به الاندراس والفناء اي اسلمي وان كنت قد بليت . ثم قال بعد كلام واعتراض على الشاعر أنه لم يحترس لان دوام المطر يخرب الدار . واجيب بانه قدم الاحتراس في قوله اسلمي وبأن ما زال تقتضي ملازمة الصفة للموصوف مذكان قابلا

لها على حسب قابليتها ثم قال وقد ضمن بعضهم هذا البيت حيث قال

اليك اشتياقي يا كنافة زائد فمالي غناء عنك كلا ولا صبر

فلا زلت اكلي كل يوم وليلة ولا زال منهلاً بجرعائك القطر

(والكنافة) اسمى الحلوى للمصريين . هذا ما يشتغل به الطالب هناك في مدة ست سنوات من النحو والفقه وأقسم لها الاخ اني لم أر حتى ساعتي هذه من بلغ السنة السادسة وحضر تلك الكتب في النحو من يحسن أن يكتب سطراً واحداً او يقرأ جملتين بغير لحن وغلط وأريد أن أختم هذه الرسالة الآن مقتصراً على ما ذكرت وفي الرسالة الآتية ترى البقية الباقية والسلام عليكم ورحمة الله

آثار علمية

﴿ رسالة الكسائي في لحن العوام ﴾

ظفر بها الباحث الالماني (بركلمن) وطبعها في المانيا وأهدى نسخة منها الى صديقنا أحمد زكي بك الكاتب الثاني لاسرار مجلس النظار فرأينا أن ننشرها في المنار لما فيها من الفائدة للكتاب والطلاب وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم . وبه نستعين . اللهم صلّ على محمد وآله الطاهرين . هذا كتاب ما تلحن فيه العوام مما وضعه عليّ بن حمزة الكسائي للرشيد هرون ولا بد لأهل الفصاحة من معرفته .

تقول حَرَصت بفلان بفتح الراء . قال الله عز وجل « وما أكثرُ الناسِ ولو حَرَصْتَ بمؤمنين » ولا تقول تحرَص بفتح الراء . قال الله تعالى « إن تَحْرِص على هُداهم فإنّ الله لا يَهْدي من يُضِلُّ » . وتقول ما نَقمت منه الا عجّلته بفتح القاف لا يقال غيره قال الله عز وجل « وما نَقَمُوا منهم الا أن يؤمنوا بالله » . وتقول دعه حتى يسكت من غضبه بالتاء ولا يقال بالنون يسكن (١) قال الله عز وجل « ولما

(١) ؛ ر من عدّى سكت الغضب بمن ولم يستشهد له وانما الشاهد في الآية معدّى بعن . وقد فسر (سكت) الزجاج وغيره بسكن . وقيل إن الكلام على القلب أي سكت موسى عن الغضب . وذكر الزمخشري المحرف في مجاز الاساس فقال :